

في النقد

«المنتـمـي» ، بقلم غالي شكري . مكتبة الزناري ، القاهرة ، ١٩٦٤

والطريق القصير والطريق المسدود والسراب في خماسية « القاهرة الجديدة » ، « خان الخليلي » ، « زقاق المدق » ، « بداية ونهاية » ، « السراب » . ولما كانت الملحمة تنتهي في اغلب الاحيان بانتصار البطل ، فقد يبدو ان ثمة تناقضا وقع فيه غالي شكري حين اختار عنوان الفصل الثاني . واعتقد ان البطل المنتصر في هذه الملحمة هو الشعب المصري الذي ربما تقهر ريثما يأخذ انفاسه ولكنه لا يلقي السلاح ابدا او يسلم بدواعي الهزيمة . وليست نماذج السقوط والانهار الا كاوراق صفراء تتساقط من هذه الشجرة السامقة التي تقف في شموخ وكبرياء وصمود . عل ان غالي شكري قد اراد من هذا الفصل ان يحسد الوضع المأساوي للبرجوازية الصغيرة حين قال : « عقدة الكرامة دائما في مأساة البرجوازية الصغيرة هي احساس حاد ملتهب بالنقص الاجتماعي . هي تعويض نفسي عن الخوف والجنون امام الواقع » . ويفسر المؤلف رؤية نجيب محفوظ لازمة المجتمع المصري على انها رؤية يسارية تتضح من فهمه للبناء التركيبي للاحداث ، « فتطور مراحل الكفاح المصري من الحزب الوطني الى حزب الوفد الى الحركات الاشتراكية هو تطور يتفق مع مفهوم اليسار لحركة التاريخ » ، كما يقول المؤلف .

وفي الفصل الثالث « المنتـمـي بين العلم والدين والاشتراكية » يرسم لنا غالي شكري سيرة البطل العظيم - الشعب المصري - في طريق الاشتراكية والعلم . وفي هذا الفصل يركز المؤلف تركيزا واضحا على العمل الكبير الذي لم ينشر بعد في كتاب لنجيب محفوظ ، واعني به رواية « اولاد حارتنا » . (وقد نشرت هذه الرواية على صفحات « الاهرام » في الاشهر الثلاثة الاخيرة من ١٩٥٩) . وقد كتبها نجيب محفوظ بعد صمت دام سبع سنوات . والبطل الاول لهذه الحارة هو الجبلوي . وانا ارى ان الجبلوي هو اول فرعون حكم هذه الحارة

في حقننا النقدي تعد هذه المحاولة الاولى في اختيارها لموضوع واحد ولكاتب بعينه ، هو نجيب محفوظ . يجب ان يحتفل الادب والنقد بنقاد مثل غالي شكري يقوم بهذا الجهد التشييط وهذا الاخلاص المثابر . ولا ادري سبب هذا الصمت الذي قوبل به هذا العمل المهم .

ام شيء استوقفني في هذا العمل هو هذا الخيط الواحد الذي يربط كل كلمة بغيرها من الكلمات . هذا الربط الدقيق يدل على وضوح رؤية الناقد وشدة وعيه بعمله ونفاد بصيرته الى موضوعه وحسن اختياره للزاوية التي اراد ان يرى منها انتاج نجيب محفوظ .

وكان الدكتور علي الراعي قد كتب يقول ، منذ سنوات ، ان كمال عبد الجواد في ثلاثية « بين القصرين » يمثل اللامنتمي في ادبنا المصري . وجاء غالي شكري ليقول ان كمال عبد الجواد ، ومن ورائه نجيب محفوظ ، يقدم نموذجا للمنتمي . ولكي يثبت غالي شكري وجهة نظره عكف على دراسة جميع اعمال نجيب محفوظ التي كتبها في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٦٣ . وبهذه الدراسة الجادة الشاملة اكد لنا غالي شكري ان نجيب محفوظ وهو يقدم لنا كمال عبد الجواد كان يسجل وثيقة فنية عن جيل الازمة في تاريخنا الحديث ، هذه الوثيقة التي تؤكد انتمائية الفنان الذي كتبها . وقد كان عنوان الفصل الاول من « المنتـمـي » هو « جيل المأساة » ، وفيه يثبت المؤلف ان شخصية كمال هي الاعلان الحقيقي عن ميلاد البطل التراجيدي في الرواية المصرية على المستوى الفني . كما ان هذه الشخصية تعتبر ميثاقا حضاريا عن ازمة جيل مأساة الحرية في بلادنا على المستوى الفكري والسياسي والاجتماعي .

اما الفصل الثاني وعنوانه « ملحمة السقوط والانهار » فيقدم لنا نماذج الضائع والمضطهد

- وهي مصر - وادارها من بيته العالي . اما شخصيات جيل ورفاعة وقاسم فتشير الى ان الحارة قد مارست في طريقها الروحي العظيم الحلول الدينية الثلاثة . وتنتهي « اولاد حارتنا » بهذه الكلمات : « لا بد للظلم من آخر ، وللليل من نهار ، وللنير في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب » . اي ان « اولاد حارتنا » تنتهي باقتصار العلم من ناحية ، ولكنها من ناحية اخرى تقدم لنا تاريخنا كله موحد غير ممزق في عمل روائي متكامل .

وكان يمكن ان ينتهي كتاب « المنتمي » بهذا الفصل ، الذي اختتم بالانتماء الى المستقبل في « السمان والحريف » . ولكن غالي شكري اراد ان يدفع انتماء نجيب محفوظ خطوة اخرى ، هي « الوجود » بمعناه الكوني الشامل ، بعد ان كان قاصرا حتى هذا الفصل على « المجتمع » . ولكي يقدم لنا هذا الموقف من « الوجود » فانه اتخذ من مجموعة « دنيا الله » دليلا ومرشدا وقائدا روحيا . وفي هذا الفصل الرابع والاخير من هذه الدراسة الاكاديمية الجادة ، وعنوانه « رؤيا الثورة الابدية » ، حلل المؤلف تحليلا دقيقا فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ . ومع اعجابي العميق بهذا الفصل ارى ان الفصل الثالث هو اروع فصول الكتاب وهو الجدير بان تنتهي عنده وبه دراسة « المنتمي » . ذلك ان الانتماء مقولة اجتماعية ولا يمكن ان يكون مقولة وجودية .

يقول غالي شكري في نهاية « المنتمي » ان عمل الناقد يقتصر على تحليل العمل الفني الى عناصره الاولى ثم صياغتها على نحو جديد ، تتجلى به اوجه الاختلال او التوازن او الاهتزاز في الرؤية ، كالفنان الذي يحلل العالم الى عناصره الاولى كذلك ويعيد صياغته على نحو جديد ، تتجلى به اوجه الانهيار والتحلل او الانسجام والتناسك . ومن خلال الصياغة التعبيرية لهذا العالم يتبين لنا موقف الفنان وجهة نظره بل ورؤياه . ومن خلال الصياغة النقدية للعمل الفني يتبين لنا موقف الناقد وجهة نظره ورؤياه .

واذا كان هذا هو مفهوم غالي شكري في النقد والفن ، فان كتاب « المنتمي » يعد تطبيقا مجيدا وعميقا لهذه النظرة النقدية ولهذا المنهج العلمي

السليم . ولعل هذه النظرة الى ادب نجيب محفوظ هي التي دفعتني الى رفض عنوان الفصل الثاني « ملحمة السقوط والانهيار » ، لان الملحمة عودتنا على انتصار البطل . وادب نجيب محفوظ ، ككل ، يقدم لنا هذا العنصر الملحمي ، اذ ينتهي كل عمل بانتصار البطل - والبطل الذي يقدمه نجيب محفوظ في كل اعماله هو الشعب . ويقول لنا غالي شكري : « ان جميع الطرق مسدودة امام الوسائل للتعدد ، ولم يعد هناك الا الثورة الشاملة » . وبهذا النص يتفق معي غالي شكري في ان الطريق الملحمي هو الطريق الذي يسير فيه كل ابطال نجيب محفوظ . ولعل كل عمل في انتاج هذا الفنان العظيم هو خطوة في الطريق الى النصر الملحمي التقليدي . ويؤكد غالي شكري هذا المعنى عندما يقرر ان « رؤيا نجيب محفوظ لم يكتمل بناؤها بعد ، لان تطوره ومنهج هذا التطور يؤكدان انه لم يقل كلمته الاخيرة بعد » .

وقبل ان اترك الكلام عن هذا الكتاب الرائد احب ان اتسامل :

لماذا لم يتناول كتاب « المنتمي » الروايات الفرعونية كما تناول في الفصل الرابع القصص الفرعونية القصيرة التي نشرها نجيب محفوظ ضمن مجموعته القصصية الاولى « همس الجنون » عام ١٩٣٨ ؟ وذلك لاهمية دراسة هذه الروايات في ايضاح مراحل واشكال الانتماء الفني عند نجيب محفوظ .

ولماذا لم نجد في هذا الكتاب الاول عن نجيب محفوظ كلمة عن حياته الشخصية ودراساته ؟ اي كلمة عن الانسان الذي يعيش وراء الفنان .

واخيرا فاني احب ان اقرر ان المنتمي الصادق الانتماء هو هذا الناقد الذي لمس بحسه الوطني ووجدانه الفني مسار تطور فنان عظيم الانتماء كنجيب محفوظ ، وتغنن برؤيته الواضحة الصادقة ان يبين لنا الرسم البياني لانتاج هذا الفنان المتجه نحو اليسار الايجابي المتكامل . ان عمل هذا الناقد المختص يفتح الطريق امام جيل من النقاد الجادين لدراسات لا حصر لها في ادبنا الحديث .

توفيق حنا